تقديم

أرى أن دراسة الأعلام السابقين — من أساطين الفكر ، وأئمة الدين ومن عباقرة فن القول وأرباب البلاغة والبراعة — وترجمة حياتهم ، تهدف أولا وبالذات إلى إعطاء اللاحقين أو المتأخرين من طلاب المعرفة ورواد الأدب صوراً ناطقة معبرة تمثل — فى مطابقة تصدق على قدر جهد الباحث — شخصيات أولئك المتقدمين من الجهابذة الناقدين ، والعلماء المحققين ، والشعراء المفلقين ، والكتاب الضالعين ، والخطباء اللسن المصاقع . فهى — أعنى تلك الصور المتحصلة من دراسة أولئك الأفذاذ — تجسم فيما تحتوى عليه من ملامح وقسمات عواطفهم وإحساساتهم ، وتبين أهواءهم ، وتفصل آراءهم ، وتكشف عن عقلياتهم ، وتبرز إلى حيز الوجود الفكرى والثقافى طاقاتهم العلمية وملكاتهم الفنية . فينضاف بذلك لبنة أو لبنات جديدة فى بناء العلم وصرح الفن ودنيا الأدب . وبالتالى يفيد من ذلك فائدة مرجوة طلاب المعارف وعشاق الآداب . وكل ذلك لا يجىء على الوجه المرضى ولا يتأتى منه الغرض إلا إذا كانت دراسة العالم أو الأديب ، وترجمة حياته ، قائمة على التدبر والتأمل والفهم الصحيح . ونحن إذا أردنا أن تكون أفهامنا لأولئك الأشخاص أدنى إلى الصحة وأقرب إلى الصواب ، وأحكامنا عليهم أدخل فى الإنصاف والسداد ، فإن علينا أولا أن نجمع ما خلفوه من نصوص وأقوال حتى نستوعب كل ما أمكننا أن نصل إليه من ذلك ، أو نقف عليه ، ثم نحقق تلك النصوص ونتثبت من صحة نسبتها إلى قائلها . وبعد ذلك ننظر بعين التحقق والتثبت والنقد والتمحيص فيما قيل فى حق موضوع الدرس أو الترجمة من أحكام وآراء من الذين عاصروه وخالطوه أو الذين ترجموا له ممن لم يلقوه ولا رأوه ، وإنما سمعوا به وقرأوا عنه . وأخيراً وليس آخراً نتفهم العصر الذى كان يعيش فيه المترجم له أو من اختير موضوعاً للبحث العلمى والتحقيق الأدبى كالذى نحن بصدده فى هذا البحث من دراستنا لابن الكيزانى .

ولست أعنى بالعصر الزمان أو الشهور والأيام ، وإنما أقصد تلك العناصر والمقومات التى تتألف منها حياة الجماعة البشرية وهى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإننا حين ندرس العصر على هذا الوجه إنما ندرسه لأمرين هما :

أولا : كون الإنسان كائناً حيًّا يتفاعل فى حياته الفكرية والجسمية مع الوسط الذى يعيش فيه ، ولست أريد أن أنساق فى هذه المسألة وراء أولئك العلماء الذين بالغوا فى تصويرهم لمدى ارتباط الإنسان ببيئته ووسطه ، إذ زعموا أنه ليس إلا أثراً أو نتيجة لتفاعل عناصر البيئة المادية والمعنوية ، وإنما أقول فقط إن الإنسان يتأثر بالغ التأثر بما يحدث أو يقع حوله من أحداث وما يكتنف وجوده من مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعة البشرية ، ثم هو يتأثر إلى حد كبير بما تكون عليه حال أرض الوطن الذى يعيش فيه من سهولة وانبساط يجعل الحياة ميسورة ، أو وعورة وصعوبة تجعل الحركة والتنقل بين بقاعها عسيرة مضنية . وذلك إذا ما كانت هذه الأرض أو تلك البلاد تكثر فيها الجبال والأودية أو الصحارى والقفار . وكذلك يكون تأثره بالغاً بطبيعة الجو أو المناخ الذى يظله فى ذلك الوطن . إذ لا يستطيع ذو عقل أن ينكر ما لبرودة الجو أو حرارته من تأثير على الأجسام والأبدان والنفوس والميول والرغبات والسلوك والأخلاق .

وأما السبب الثانى الذى من أجله نكلف ونعنى إلى حد كبير بدراسة عصر ذلك الشخص المقصود بالبحث أو الترجمة ، فهو أن الإنسان معقد فى حياته وتصرفاته ، وعلماء النفس يعترفون بهذا ويقرونه . فهو — أعنى الإنسان — كثيراً ما يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، ومن هنا كان لعصر الشاعر أو الأديب دخل كبير فى تفسير ما قد يعترض الباحث فى تفهمه شخصية من تصدى له بالدراسة من مشاكل ، منشؤها ما قد يبدو من تناقض فى أقواله وأشعاره أو سلوكه وأفعاله . وبالجملة فإن على الباحث الذى يريد أن يخرج للناس صورة صادقة تنطبق على ذلك الشاعر أو الأديب الذى يختاره موضوعاً للبحث والدراسة ، وبخاصة إذا أراد أن يقدم ذلك البحث إلى إحدى الجامعات كرسالة يرجو أن يمنح بمقتضاها درجة علمية ، فإن عليه والأمر كذلك أن يجمع كل ما وصلت إليه يده من نصوص وأقوال ، تنسب إلى الشخص الذى هو موضوع البحث والدراسة ثم يحقق تلك النصوص ويثبت

من صحة نسبتها إليه ، وبعد ذلك يتبين الظروف والأحوال التى قيل فيها ذلك النص ، ثم ينظر فيما يقال فى حق ذلك الشاعر أو الأديب من آراء أو أحكام تكون له وقد تكون عليه ، سواء أكان أصحاب تلك الأحكام أو الآراء ممن عاصروه وقدر لهم لقياه والأخذ عنه ، أم لم يقدر لهم أن يلقوه ولكن سمعوا به وقرءوا عنه .. أو كان أصحاب تلك الآراء والأحكام ممن جاءوا بعده فترجموا له أو أرخوه . ولكن الفريق الأول فى رأيى أصح رأياً وأصدق حديثاً .

ثم بعد ذلك تأتى أهمية العصر ومكانته بالنسبة للمنهج العلمى الصحيح الذى يترسمه الباحث فى تحقيق شخصية موضوع الرسالة . وإن كان العصر يجىء متقدماً فى ترتيب الرسالة وتبويبها فى أكثر الأحيان فإنه ليس معنى ذلك أن العصر يحتل بالجدارة والاستحقاق من الوجهة المنهجية مكان الصدارة من البحث أو الكتاب ، إنما هو فى الواقع ونفس الأمر لمجرد الترتيب والتنظيم فقط . فتقديم العصر إذن — فيما أعتقد — هو ترتيب شكلى أو ظاهرى .

وبناء على هذا يكون العصر متقدماً — فى الرسالة أو البحث أو الكتاب من الوجهة المنهجية — لفظاً متأخراً معنى ورتبة — على حد تعبير النحاة ، وقد التزمت بكل دقة وأمانة ذلك المنهج فى هذا الكتاب . فجمعت النصوص وحققتها ونظرت فى كل ما قيل فى شأن ابن الكيزانى ممن عاصروه أو لم يعاصروه ، وبعد ذلك تعرفت أوضاع الحياة التى كانت تسود العصر الذى عاش فيه ابن الكيزانى ، وبناء عليه فقد جاء القسم الأول من هذا الكتاب وهو الذى تناولت فيه بالبحث والتحقيق حياة ابن الكيزانى وتفهم جوانبها فى بابين : الباب الأول فى دراسة عصره ، فقد تكلمت فيه بإيجاز لاتفريط فيه عن مقوّمات ذلك العصر وعناصره ، وهى — كما هو معلوم بالضرورة لدى جميع الباحثين والمحققين — أربعة أمور هى : الظروف السياسية ، والأحوال الاقتصادية ، والأوضاع الاجتماعية والخلقية ، والحركة الفكرية والأدبية .

ومن ثم جاء هذا الباب فى خمسة فصول : الأول فى تبين الظروف السياسية ، والثانى فى الأحوال الاقتصادية ، والثالث فى الأوضاع الاجتماعية ، والرابع فى بيان عوامل اضمحلال الشعر الصوفى فى مصر فى القرن الخامس الهجرى وفى بيان أسباب عودته إلى الظهور من جديد فى مصر فى القرن السادس الهجرى — الذى هو عصر

ابن الكيزانى — ، والفصل الخامس فى بيان موضوعات وفنون ومدارس الشعر المصرى فى تلك الحقبة بوجه عام . وفى الباب الثانى تناولت حياة ابن الكيزانى بالدرس والتمحيص والنقد والتحليل ، وهو يقع فى ثلاثة عشر فصلا تكلمت فيها عن نشأته وتتلمذه ، وعن روايته الحديث وارتحاله فى طلبه ، وعن تدريسه له ولغيره من العلوم الشرعية وعن تربيته للمريدين ، وبينت موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر ، وقلت إنه كان سنى العقيدة والمذهب ، وبينت بعد ذلك كله موقفه من خلفاء الفاطميين وموقفهم منه ، وذكرت بعد ذلك أنه كان يقول بالاشتراكية ويحرم احتكار الأموال . ثم تحدثت عنه من حيث إنه شاعر أو أديب ، وبعد ذلك ذكرت آراء الأقدمين — من المؤرخين والناقدين — فيه ، وقبل ذلك تناولت بالشرح والتبيان أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية من إطار التعاليم الباطنية إلى الفكر السنى ، كما بينت كذلك أثره الواضح فى توجيه الحركة الأدبية والشعرية فى مصر بوجه عام . وفى نهاية هذا الباب عرضت بالذكر إلى وفاة ابن الكيزانى والمكان الذى دفن فيه .

أما القسم الثانى من هذا الكتاب فيقع كذلك فى بابين : الباب الأول فى جمع شعر ابن الكيزانى وتحقيقه وترتيبه ، والباب الثانى فى دراسة شعره واستخلاص خصائصه الفنية وذكر مناهجه الأدبية .

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد العلمى والفكرى والعمل الأدبى والفنى الضئيل طلاب العلم ورواد الثقافة وعشاق الآداب من أبناء الإسلام — خاصة — والشبيبة العربية بوجه عام .